أعلام مبترزونج

من الشرق والغرب

وليم شكسبير



دار الشرق العربي

وليم شكسبير

1564 ـ 1616 م

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة

لأعلام مبرّزين من الشرق والغرب

---

1 ـ الإسْكندَر الأكبـــر 2 ـ هنيبَعــــــــل

3 ـ أبو العــلاء المعـرّي 4 ـ ابــنُ بطُّوطــــة

5 ـ ابـــنُ خلــــدون 6 ـ كريسْتوف كولومبوس

7 ـ وليَــم شكسْـــبير 8 ـ نـابوليون بُونـــابرت

9 ـ ليــون تُولسْــتوي 10 ـ المهاتما غانــــدي

كتبها وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

أعــلام مـــبــرزون
من الشرق والغرب

وليم شكسبير

1564 ـ 1616 م

دار الشرق العربي
حلـــب ـ ســوريــة ـ ص.ب:415
بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: 11/6918

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبها وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي
حلب ــ سورية ــ ص.ب: 415

الطبعة الأولى 1998 م - 1419 هـ
الطبعة الثانية 2000 م - 1421 هـ
الطبعة الثالثة 2002 م - 1423 هـ

طبـع فـي : المطبعة الحديثة ـ حلب

المقدمة

يتّفقُ المؤرِّخونَ الغربيُّــونَ علـــى اعتِبـــارِ **سُقوطِ القُسطنطينيَّةِ** في أيدي الأتْراكِ العُثمــلنيين عامّ 1435م **بدايةً لعصرِ النهضةِ في أوربَّـــةَ**، إذ انتقلتْ كُنوزُ التُّراثِ اليُونانيِّ والرُومـــانيِّ مـــع العُلماء الذينَ كانُوا يُقيمونَ في القُسطنطينيةِ إلـــى إيطالية وغيْرها مِنْ بِلادِ الغرْبِ التـــي نَزَحــوا إليْها، فكانتْ مُنْطلقاً لنهْضةٍ فكريةٍ كبيرةٍ، وبدأتْ ثقافةُ اليُونانِ والرومانِ، الصادرةُ عن تُراثِـــهِما المنقولِ إلى أوربَّةَ، تُضيءُ العُقولَ وتبُـــثُّ فـــي النُّفوسِ روحاً جديدةً تتمـــرَّدُ علـــى السُـلُطاتِ الدينيّةِ، وتُهاجِمُ الكنيسةَ التي كانتْ آنذاك تُمْسِـكُ

بزمامِ الفِكْرِ وتُوَجِّهُهُ حسْبَ مشيئتِها، وقد تمثّلَتْ هذه الرُّوحُ الجديدةُ الناقِمةُ في عددٍ من المُصْلحينَ الدِّينيينَ الذين دَعَوا إلى تطهيرِ العقائِدِ، وخرجوا على السُّلْطةِ البابويَّةِ، **وانقَسمَ المسيحيونَ طائفتيْنِ: الكاثوليكِ** الذين ظلُّوا يحتفظونَ بالعقيدةِ القديمةِ، **والبروتستانتِ** الذين كانوا يُطالِبونَ بالتجديدِ والإصْلاحِ، وكانتِ الغلَبَةُ في إنكلترة لهذهِ الطائفةِ الثانيةِ، **وشملتْ البُلْدانَ الأوربيَّةَ كلَّها موْجةٌ عارِمةٌ من الشُّعورِ القوْميِّ**، إذْ أصبحتْ كُلُّ أمَّةٍ تنْتبهُ إلى نفسِها وقوميتِها وتحرص على استقلالِها، وظهر أثر ذلكَ كلِّهِ في الأدبِ في الأعْوامِ الأخيرةِ مِنْ

القرنِ السادسَ عشر، وفي أدبِ شِكسبير في تلكَ الحِقبةِ نجدُ صورة تُمثِّلُ بوضوحٍ وجلاء الروحَ القوميَّةَ الإنكليزيَّةَ والشُّعور القويَّ في نفوسِ الإنكليزِ بقوميَّتِهِمْ المُستقِلَّةِ، وذلِكَ هو الطابعُ المميّزُ لِعصْرِ الملكةِ إليزابيث، وهو عصْرُ شكسبيرَ نفسهِ، الذي كان عصْراً زاهِراً **بالنهْضةِ التي شملتْ أوربة** بأسْرِها، والتي كانتْ من أبرزِ مُقوِّماتِها أربعةُ أمورٍ:

1 ـ **ثقافةٌ جديدة** موْصولةٌ بكُتُبِ التُراثِ اليونانيِّ والرُّومانيِّ..

2 ـ **وحركةُ إصْلاحٍ دينيٍّ** تدعو إلى تطْهيرِ العَقيدةِ..

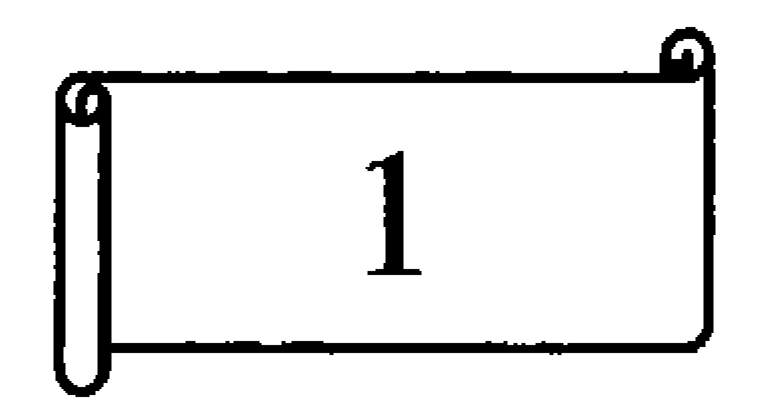
3 ــ **وشعورٌ بالقوْميّةِ يُميِّزُ** أُممَ أوربَّةَ بعضَـــها من بعضٍ..

4 ــ **وتطلُّعٌ لاستكشافِ آفاقِ الأرْضِ والســماءِ** في مغامراتِ الرَّحالةِ والملاّحين والفلكيّيــنَ لِمعْرِفةِ المجْهولِ!

جميعُ هذه المقوِّماتِ نجدُهــا بــارزة فــي مُؤلَّفاتِ شكسبيرَ، والحقُّ أن شــاعِرَ الإنْكلــيزِ الأعْظم هذا هُوَ الثمرةُ الكُبْرى لثقافـــةِ عصْـرِهِ المُزْدهِرةِ، بكُلِّ خصائِصِـــها ومُميِّزاتِـــها، كمــا سَنرى من خلالِ عرضِنا لسيرةِ هـــذا العبْقــريِّ المبرِّزِ الخالدِ.

الباب الأول

نشأة شكسبير وتكوينه الثقافي



ولد **وليم شكسبير** في إنكلتره، فـــي بلـــدة صغيرة تدعى ستراتفورد، تقع على نهر آفـــون ويحيط بها ريف رائع فاتن، فالمروج تحف بــها، والتلال، والوهاد المكسوة بالخضرة الدائمة تمتــد من حولها، وتجعل تلك المنطقة الريفية عـــامرة بألوان النشاط: فرعاة الماشية مع قطعان الضــأن منتشرون فيها والفلاحون يزرعون ويحصـــدون في أرض سخية معطاء، والصيادون لا يكفــون

عَنْ صَيْدِ طَيْرِها وحَيوانِها. أمَّا البَلْدةُ نفسُها فلم تكُن قَريةً ضئيلةً مُنعزِلةً في تِلْكَ المنْطقةِ الرِّيفيةِ الجَميلةِ، بلْ كانتْ **مدينةً نشيطةً تَمُوجُ بِرجالِ التِّجارَةِ والأعْمالِ وأصْحابِ الأراضي** المُوسرينَ، وكانَ عَددٌ مِنْ أهلِها قَدْ غادَروها إلى لُنْدنَ لِيشقُّوا لأَنفسهِمْ طُرق مُستقبلهم فيها، فَأصابُوا مِنَ النَّجاحِ والغِنى والنُّفوذِ حُظوظاً كَبيرةً حَتَّى إنَّ واحداً مِنْ تُجَّارِ ستراتفوردَ النازحينَ إلى لُنْدنَ صارَ عُمْدةً لِلعاصِمةِ الإنْكليزيَّةِ.

في هذهِ المدينةِ الريفيةِ وُلِدَ شكسبيرُ في الثالثِ والعشرينَ من نَيْسان عامَ 1564 م، في بيتٍ من بُيوتِها، في شارعِ (هَنْلي) يَقْصِدُهُ

الزائرونَ من أرجاء الدنيا ألوفاً في كُلِّ عامٍ، وفي كنيسةِ هُولى تِرينيتي (كَنيسةِ الثّالوثِ المُقَدَّسِ) في هذه المدينةِ عُمِّدَ وِلْيَم شكسبير وسُجِّلَ اسمُه في سِجلِّ التَعْميد فيها، وهي الكنيسةُ التي ستَضُمُّ رُفاتَهُ بعدَ مَوْتِهِ، وسيَصيرُ قَبْرُهُ فيها مَقْصِدَ الزُوّارِ الوافدينِ على مَسْقَطِ رأسِ الشاعرِ الإنكليزيِّ الأعظمِ، من جميعِ أَصْقاعِ الدُّنيا.

لم يكُنْ **جُونُ شكسبيرُ والدُ وِلّيَمَ** من أَبْناءِ سْتْراتْفُوردَ إذ كان أبوه ـ جَدُّ وِلْيَمَ ـ واسمه ريتشاردُ شكسبير، يملكُ مَزْرَعةً في "**إسْنترَفيلْد**" في شَمالِيِّ ستراتفوردَ، ومنها نَزَحَتِ الأسرةُ إلى

ستراتفوردَ، يومِ كانَ والدُ وِلْيَمَ في شَرْخِ شَبابِهُ، وكانَ يومَذاكَ يَمْتَهِنُ صناعةَ القُفّازاتِ وغيرِها من المَصْنُوعاتِ الجِلْديةِ الدقيقةِ، فشاعرُنا الأعظمُ إذاً هو **سَليلٌ لأسرةٍ من مُلاَّكِ الأَرْضِ**، وقدِ انْصَرَفَ أبوه بعدَ استنزافِ أملاكِ الأسرةِ إلى الصِّناعةِ، وزَعمَ بعضُ الرواةِ أَنّه كانَ يُتاجِرُ في الصُّوفِ إلى جانبِ صِناعةِ الجِلْدِ، كما زَعَمَ آخرون أنَّه كان قَصَّاباً، وهو زَعْم يُفَنِّدُهُ الباحثونَ ويَرفُضُونَه.

وأما **أمُّ وِلْيَمَ السيدةُ "ماري آرْدِنْ"** فهيَ ابنةُ تاجرٍ غنّيٍّ كانَ يُقيمُ في بلدةٍ قريبةٍ من ستراتفوردَ، ويُجمعُ الباحثونَ على أَنّه سليلٌ

لأسرةٍ من أَمْجَدِ الأسَرِ وأعْرَقِـها فـي انكلـترةَ وَرِثَ الضِّياع والبَساتينَ، فأَوْصى بها لِصُغْـرى بناتِه ـ أمِّ ولْيَمَ ـ ولكنَّها كُلَّها ضَاعَتْ رهينـةً لِدَيْنٍ، فلَمْ تَفُزِ الأمُّ التي أَنْجَبَتْ أعظـمَ شُـعراءِ العالمِ مِنْ ثَرْوَةِ أبيها بِطَائلٍ، ولولا ضَياعُ تلـكَ الثروةِ الكبيرةِ لَكانَ وليمُ شكسبيرُ نشأَ في خَفْـضٍ وَرَفاهِيَةٍ من العَيْش، ولَكانَتْ سِيرةُ حياتِـه فـي طُفُولتِهِ وتكْوينِهِ وشَبابهِ سِيرة أخْرى!

كان **ولْيَمُ ثالثَ أبناءِ أبيه**، فقد رُزِقَ جُـونُ شكسبيرُ قبلَهُ ابنتَيْنِ تُوُفِّيَتا صغيرتَيْنِ، ثـم رُزِقَ بعدَ ولْيَمَ ثلاثةَ صِبْيانٍ هُم جلـبَرْتُ و ريتشـاردْ وإدْمُوندُ ثم رُزِقَ بعدَهم ابنتَيْنِ، وهكـذا كـبرَتْ

الأسرةُ، ولم يكُنْ كَسْبُ مُعِيلِها كبيراً، فظلَّ لا يَمْلِكُ من المالِ ما لا يَزيدُ عَنْ حاجَتِهِ، على الرغمِ من كَثْرةِ نشاطِه وبَراعتِه في عَمِلِه وصناعَتِه، ويبدو أَنَّ حالتَه الماليةَ قد تحسَّنَتْ بعدَ ميلادِ وِليمَ، إذ اختيرَ في عام 1565 م عُمْدَةَ للمدينةِ ثم رئيساً لِبَلَدِيَّتِها عامَ 1568 م، وبذلك **أصبحَ جُون شكسبيرُ من أَعْيانِ مدينةِ ستراتفوردَ**، وغَدا مَشْهُوراً في بَلْدتِهِ وعَظُمَ شَأْنُهُ، وازدادتْ حالُه مع الأيامِ تحسُّناً، بِفَضْلِ اجتهادِهِ وحُسْنِ إدارتهِ لأَعْمالِه، وثقةِ الأهلينَ بهِ وتَقديرِهم إيّاه، وقد استطاعَ خِلالَ عَشْرِ من السَّنَواتِ أن يَرْفَعَ مُسْتَوَى مكاسِبِه، فظهَرَتْ عليهِ

مظاهرُ الغِنى والثَّراءِ، واشـــترى مَـــنْزِلَيْنِ فـــي ستراتْفُوردَ، وبَسَطَ الرجلُ يَدَهُ في الإنْفاقِ علـــى أسْرَتِهِ، غيرَ أَنَّ الحالَ لم تَدُمُ على هذِهِ الصُّـــورةِ الزاهيةِ طويلاً، إذ لَمْ تَلْبَثِ الثروةُ التـــي نَعِمـــتِ الأسرةُ بِخيراتِها حِيناً أنْ تَبَدَّدَتْ وعادَتِ الأســـرةُ إلى العُسْرِ والضيِّقِ، واضْطُرَّ والدُ وِلْيـــمَ إلـــى رَهْنِ عَقارِهِ الذي اشْتَراهُ بِكَدِّهِ ونَشاطِهِ، لِيتمكَّـــنَ من الإِنْفاقِ على أسْرَتِهِ.

2

قضى وِلْيَمُ شكسبيرُ **طُفولَتَـــهُ فـــي مَسْـــقَطِ** رأْسِهِ في مدينةِ ستراتفُوردَ الناعمةِ في أحْضـــانِ الرِّيف، وكانتْ طفولةً هادئةً مثلَ جميـــعِ لِداتِـــه الذينَ نَشَأوا في مِثْلِ تلكَ البَلْدَةِ الصَّغيرةِ، ويُرجِّحُ الباحثونَ في آثارِهِ المسرحيةِ وما فيها مِنْ صُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ لِلأَشْباحِ والجِنِّ والأَهْـــوالِ المُرْعِبَـــةِ أَنْ يكُونَ الطفلُ الصغيرُ قد اســـتمعَ فـــي طُفولَتِـــهِ المُبكِّرةِ تلكَ إلى ما كانَ يُحْكى لِلصبيـــانِ قبـــلَ استسلامِهِم لِلنومِ من قِصَصِ الجِـــنِّ والسَّـــحَرَةِ وأشباحِ المَوْتى وأَهْوالِ اللَّيْـــلِ والظَّـــلامِ، وقـــد استطاعَتْ تلكَ الحِكاياتُ أَنْ تَتْرُكَ فـــي خَيـــالِ

الصبيِّ آثاراً قويّة، وقد أحسَنَ الشاعرُ فيما بعـــدُ استغلالَها في مَسْرحياتِه أحسنَ استغلال.

وعندما بَلَغَ وِلْيَمُ عامَه السابعَ أرْسَلَهُ أبـــوه **إلى المدرسةِ في استراتْفُوردَ** لِيَقْضِيَ فيها قُرابــةَ ثمانيةِ أَعْوامٍ هي جِماعُ فَتْرَةِ تَحصيلِهِ المدرســي، في مَرْحَلَتَيْهِ الابتدائيـــــةِ والثانويـــةِ لأنَّ الفَتـــى سُيغادِرُ المدرسةَ، بعد اشتدادِ العُسْـــرِ والضِّيـــق على أبيهِ، لِيُشارِكَ في الحياةِ العمليَّةِ، ولم يكُنْ قد أَتمَّ يومَذاك عامَه الخامسَ عشَرَ، **والباحثونَ إلـــى اليومِ حائرونَ في الاهْتِداءِ إلى مَصـــادرِ ثقافـــةِ الشـــاعرِ العبقـــريِّ** التـــي تعكسُـــها أشـــــعارُه ومسرحياتُه: ففي رواياتِ وِلْيَمَ شكسبير اطِّـــلاعٌ على أَدَبِ الأقدَمينَ فكيفَ تَيَسَّرَ لهُ ذلكَ كُلُّهُ وهـو

الذي لم يتم تعليمه الثانوي، ولم تتح له دراسة جامعية بعد ذلك!

يقول أحد الباحثين "إن اللغز الذي يحير حقا في حياة شكسبير العظيم هو عدم استقامة ما نعرفه عن ثقافته الرسمية مع أدبه العالمي المجيد الذي ينم عن علم مستفيض وعميق بتراث الأدب الإنساني، أغلب الظن في منابعه الأولى!!"

الشائع عن شكسبير أنه كان رجلا "**ربع متعلم أو نصف متعلم على أكثر تقدير**" فهو لم يتم تعليمه في المدرسة الثانوية لضيق ذات يد أبيه، وقد ترك المدرسة ليساعد أباه في عمله

وتحصيلِ عَيْشِهِ، ثُمَّ استغرقَتْهُ الحياةُ العمليَّةُ عنِ الدراسةِ المُنْتَظَمةِ، **فكيفَ تَيَسَّرَ لهذا الرجلِ الناقصِ الثقافةِ أن يُعَلِّمَ نفسَه تعليماً رفيعاً** يُتيحُ له أن يُنشِئَ كلَّ هذا الأدبِ العظيمِ الذي نجدُه في مسرحياتِه، والذي يَدُلُّ على فلسفةٍ عميقةٍ وثقافةٍ واسعةٍ وذكاءٍ خارقٍ!

إنَّ في الأَمْرِ لُغْزاً يَنْبَغي حلَّهُ!

من هُنا انطلقتْ دراساتٌ تَزْعُمُ أنَّ وراء المسرحياتِ المنسوبةِ إلى شكسبيرَ شخصياتٍ أخرى هي التي أَلَّفَتْها أو شارَكَتْ في تأليفِها، كما انطلَقَتْ **مَزَاعِمُ** أخْرى تقولُ إن كثيراً من مَسرحياتٍ شكسبيرَ كانتْ موجودة **فِعْلاً** وأنَّ

شكسبيرَ تناولَها بالإصْلاحِ والتَّنْقِيحِ بِحَيْثُ جَعَلَها في حالَتِها المعروفةِ الآنَ، أو أنَّهُ أعَادَ صِياغتَها على طريقتِه، وأنَّ هذا هو الذي مَكَّنَهُ من تَحْقيقِ هذا الإنتاجِ الضخمِ ولو أنّه كانَ هُوَ مُبْتِكرَ هذه المسرحياتِ مِنْ أصُولِها لَمَا تمكَّنَ من إنْجازِ هذا المحصولِ المَسرحيِّ البالغِ الوَفْرَةِ!

والحقُّ أنَّ ثقافةَ شكسبيرَ التي أعْطَتْ مسرحياتِه، تَغْدُو لُغْزاً مُحَيِّراً عندما نَقْبَلُ الآراء الشائعةَ عن نُقْصانِ ثقافتِه وتعليمِه، وهي آراء يَسْخُو بها المُؤرِّخُونَ لِحياةِ العُظَماءِ لكي يَفْتِنُوا بها القُرّاء، فَرَجُلٌ "رُبْعُ مُتَعَلِّمٍ" مثلُ شكسبيرَ يُنتجُ هذا الأدبَ الشامخَ الخالدَ أمرٌ يَسْتَثِيرُ إعْجابَ

القُرّاءِ، وقصةُ العظيمِ لا تكون فَاتِنَةً جَذْابَة إلاّ إذا ارْتَقَتْ به من الحَضيــضِ الأســفلِ إلــى الأَوْج الأعلى: فهذا القَصّابُ ابنُ القَصَّابِ يُصبِحُ أكــبرَ عبقريَّةٍ شعريةٍ في الدُّنيا، وهذا الرجلُ النـــاقصُ الثقافةِ يُنْتجُ أعظمَ أدبٍ غَنِيً بالفلســفةِ والثقافــةِ والذكاء! تناقُضات تستثيرُ إِعْجابَ النــاسِ مــن القُرّاء وتُرْضي أَذْواقَهم!

إن **ثقافةَ شكسـبيرَ الحقيقيــةَ هــي مــا تكْشِفُ عنهُ آثــارُه وأعمالُــه**، وقــد اســتطاعَ العبقريُّ أنْ يُحَصِّلَ هذه الثقافــةَ مــن دراســتِهِ الرسميةِ أولاً ثُمَّ من مُتابَعةِ القِــراءة، وتعليــمِ نفسِهِ بنفسِه، والكتابُ خيرُ مُعَلِّمٍ كمــا يَقُولــون،

وفي الدُّنيا كثيٌر من الُمَبِّرزين في كُلِّ أمـــةٍ مـــن أمَمِ الأَرْضِ، عَلَّمُـــوا أنفسَـــهم بأَنْفُسِـــهم، بعـــدَ دراستِهم الأَوَّلِيَّةِ على مُعَلِّميهم، حتى بَلَغُوا أَرْفَـــعَ الدَّرَجاتِ.

3

هناكَ أدِلَّةٌ في أدَبِ شكسبيرَ على أنّه **كـــان مُطَّلِعــاً علـــى أَهَــمِّ آثــارِ الــتُراثِ اليونــانِّي والرومانِّي**، وقد كانَ أكثرُ ذلك التراثِ في عَصْرِ شكسبير غيرَ مُترجمٍ إلى الإنكليزيةِ، ولا ســـبيلَ إلى قراءتِهِ إذ ذاكَ إلاّ في اليُونانيةِ أو اللاتينيـــةِ والمعروفُ أن شكسبيرَ تعلَّمَ اللاتينية والإغريقيـةَ (اليُونانيةَ القَديمةَ) فـــي مدرســةِ ســتْراتْفُوردَ، وطالَعَ أجزاء من الأَدَبِ اللاتينيِّ كانَ لها أبلـــغُ الأثرِ في تكْوينِهِ الأدبيِّ، ومهما يكُنْ حَظُّ شكسبيرَ من هاتَيْنِ اللُّغتَيْنِ قليلاً فإن مسرحياتِه فيها الدليلُ

على قِراءتِه للشاعرِ الرَّومانيِّ (**أوفيد**) وتَأَثُّرِه بــهِ واستعارتِه لِبَعْضِ شخصياتِهِ من أَدَبِهِ، كمـــا أنَّ في مسرحياتِهِ أَثَراً لآخَرينَ مـــن أعـــلامِ الأدبِ اللاتينيِّ مثلِ "**بُلوتس**" و"**جوفْنال**" مِمّا يُؤكِّدُ لنا أنَّ الفتى عندما غادرَ ثانويةَ ستراتفوردَ كان علـــى إلْمامٍ دَقِيقٍ ووَاسِعٍ باللُّغةِ اللاتينيةِ وأَعْلامِ أدبِها.

والباحثونَ فـــي أدبِ شكســبيرَ **يُرجِّحُــونَ معرفةَ الشاعرِ بمبادئِ عددٍ من اللُغاتِ الأخْــرى كالفرنسيةِ والإيطاليةِ**، مِـــنْ خِـــلالِ العِبـــاراتِ المنثورةِ من هَاتَيْنِ اللغتينِ في مسرحياتِه ويبـــدو أنَّ احتكاكَ شكسبيرَ ببعضِ الجَالياتِ الأجنبيةِ في لُنْدُنَ، بعدَ انتقالِه إليها أتاحَ له مَعْرِفـــةً بمبـــادئِ

لُغاتِها، ويَظُنُّ بعضهُم أنَّ شاعرَنا زارَ عَدَداً مــن البلادِ الأوْربية، ومنها فرنسةُ وإيطاليةُ، وأفادَ من تلكَ الزيارات مَعْرفتَه بمبادئِ تلكَ اللُّغات!

والحقُّ أن سِتاراً من **الغُموضِ يُغَطّي بعضَ الفَتَراتِ من حياةِ شكسبيرَ**: كهذه الفترةِ التي تلتْ تركَهُ لِلمدرسةِ الثانويةِ في ستراتفوردَ ليُساعِدَ أباه في ضائقَتِهِ الاقتصاديةِ، ويبدو أنَّه لم يَنْقَطِعْ عـن تعليمِ نفسِه بمُوالاةِ القِراءةِ والتَحْصيلِ، ومَسرحياتُه تُبيحُ لنا أنْ نَفْتَرِضَ أنه كـانَ فـي صَدْرِ شبابِه مَرِحاً كثيرَ التَّجْوالِ فـي الحُقـولِ، عميقَ الإطِّلاعِ على حياةِ الرِّيفِ، ففي مسرحياتِه ذِكْرٌ للجيادِ وكِلابِ الصَّيْدِ والغِزْلانِ والصُّقُـورِ،

مما يُؤكِّدُ لنا أَنّه عاشَ في أَحْضَانِ الطبيعةِ زَمَناً، وأكتسبَ منها تجارِبَ أَحْسَنَ استغلالَها في رِواياتِه بعدَ ذلكَ.

وهُناكَ روايةٌ تتحدَّثُ عن اشتغالِ شكسبيرَ في هذهِ المرحلةِ من حياتِهِ بالتدريسِ في مدرسةٍ ريفيّةٍ، غيرَ أن الباحثينَ لا يجدون دَليلاً يُؤيِّدُ صحةَ هذه الروايةِ أو يَنْفِيها، ومسرحياتُ شكسبيرَ إذا عَرَضَتْ لِتصويرِ أَحَدِ المعلِّمينَ صَوَّرَتْهُ على هيئةٍ تدعو إلى السُّخْرِيَةِ، وتَبْعَثُ على التحقيرِ والزِّرايةِ، مما يَدْفَعُ إلى الظنِّ بأن شكسبيرَ لم يكُنْ يُضْمِرُ لمهنةِ التعليمِ احتراماً أو تَقْديراً.

الباب الثاني

كِفاحُ شكسبير في الطّريقِ إلى القمّةِ

1

غادَر شكســـبيرُ مدرســتَه الثانويــةَ فــي ستراتفوردَ عــامَ 1578 م وهــو دُونَ الخامســةَ عشْرَةَ من سَنَواتِ حياتِه لِيَبْدأَ كِفاحَه العمليَّ إلــى جانبِ أبيهِ، عَوْناً لهُ في عُسْرِهِ وضيقِ ذاتِ يــدِه، وقد أمْضى الفتى سَبْعَ سنواتٍ في بَلْدَتِهِ قَبْــلَ أنْ يُغادِرَها عامَ 1585 م إلى لُنْدُنَ، حينمــا أدركَ أنَّ ستراتفوردَ لَنْ تَستَطيعَ تحقيقَ مطامِحِه الكبــيرةِ في المُستقبلِ الذي يَحلمُ بأمجــادِه لِنفسِــه، وقــد

أَتَاحَتْ **لُندنُ** للشاعرِ العبقريِّ خِلاَل سَبْعِ سـنواتٍ أخرى أنْ تُوصِلَهُ إلى النجاح، فـإِذا هُـو عـامَ 1592م نجمٌ سَاطِعٌ وعَلَمٌ مـن أَعْـلامِ المَسْـرَحِ والتمثيلِ في العاصمةِ الكبيرةِ، وسنُحاولُ في هذا البابِ أَن نَتَبيَّنَ خُطُواتِ كِفاحِهِ في طريقهِ إلـى القمةِ مُنذ تَرْكِهِ المدرسةَ حتى أصبحَ عَلَماً بـارزاً فوقَ مَسارحِ لُنْدُنَ.

والباحثونَ يَتَحدَّثُونَ عنِ الغُمُـوضِ الـذي يكتَنِفُ هذه المرحلةَ من حياةِ شاعرِنا العظيـمِ، وقد أَشَرْنا إلى ذلكَ من قَبْلُ، فنحـنُ لا نعـرفُ كيفَ أمضى أعوامَه في ستراتفوردَ بعدَ تَخَلِّيـهِ عن المدرسةِ إلى أنْ بَلَغَ الحاديةَ والعشرينَ مـن

عُمْرِه، وهناكَ روايات كثيرة ومُتَناقِضَةٌ تجعلُنـــا في يَأسٍ من أَنْ نعلمَ عِلْمَ اليقينِ ما كانتْ صِناعتُه التي يَرْتَزِقُ منها حينَذَاكَ، **فهل كانَ يعمـــلُ فـــي التدريسِ أم في صناعةِ الجُلـــودِ، أم فـــي بَيْـــعِ اللُّحومِ!! أم كان يَعملُ فـــي الزراعـــةِ ورَعْـــيِ الماشيةِ** فيقضي أيامَه في حِراسَةِ قِطعانِها فـــي الحُقـــولِ والمراعـــي الخَصِيبـــةِ التـــي تُحيـــط بستراتفوردَ مِنْ كُلِّ جانبٍ! بعضُ الرواياتِ تقولُ إنه كانَ يُمضي نِصْفَ نهارِه الأَوَّلَ في مُســـاعدةِ أبيهِ في بَيْعِ اللَّحْمِ والزِّراعةِ، ويقضـــي نِصْفَـــهُ الثاني في رِعايةِ بِضْعِ بَقَراتٍ وَهْيَ تَرْعى فـــي الحُقولِ القريبةِ، حيثُ كانَ الفتى الحالِمُ يَتركُـــها تَرْعى، بينما يَنْصَرِفُ هو إلـــى قِـــراءةِ كتـــابٍ

يحمله، أو كتابة بعض المقاطع الشعرية التي كانت موهبته المتفتحة تجود بها، حتى إذا انقضى النهار، وغربت الشمس، عاد الفتى إلى داره لينصرف بعد العشاء إلى متابعة القراءة، مواليا تثقيف نفسه بنفسه، مستظهرا من الشعر اللاتيني أو الإغريقي ما يلذه، ويجعله على صلة دائمة بهاتين اللغتين اللتين تعلمهما في مدرسة البلدة.

هذه الروايات عن حياته قبل رحيله إلى لندن يحيط بها غموض غير أن واقعة من وقائع حياته خلال هذه الفترة تبدو لأعيننا حقيقة لا يعتريها الشك، وهي حادثة **زواجه المبكر** عام 1582، وهو في الثامنة عشرة عمره من ابنة أحد

المزارعين الأغنياء المقيمين على مقربة من البلدة، وهو زواج يثير التساؤل والدهشة، لأكثر من سبب! فقد كانت الفتاة **(آن هاثاواي)** قد أتمت عامها السادس والعشرين، فهي تكبر وليم شكسبير بثمانية أعوام، وقد وقع الزواج في ظروف غير ملائمة لأسرة شكسبير التي كانت تعاني من الضيق المادي ما جعلها تحرم الفتى الموهوب من متابعة دراسته النظامية، وتدفع به إلى الحياة العملية ليسهم إلى جانب أبيه في كسب لقمة عيش الأسرة وتأمين نفقات حياتها، وما انقضى على زواج الفتى خمسة أشهر حتى وضعت له الزوجة **أولى بناته (سوزانا)** في

السادس والعشرين من أيار عام 1583! وبعض الباحثين يصرحون بأن شكسبير وجد نفسه وهو في الثامنة عشرة متورطا في الزواج من آن هاثاواي بعد أن حملت منه سفاحا، وآخرون لا يرون في الأمر تورطا، ويقولون إن الزواج في انكلترة في القرن السادس عشر كان يتم على مرحلتين زواج قانوني وزواج شرعي، وقد تفصل الزواجين فترة طويلة، ولهذا فإن إنجاب (آن هاثاواي) مولودتها بعد خمسة أشهر من زواجها الشرعي المسجل ليس فيه مأخذ في عرف ذلك العصر.

وفي نهاية عامين من ذلـــك الـــزواج رزق وليم شكسبير من زوجته تلـــك **توأميـــن، ولـــدا وبنتا**، فأصبح وهو مـــا يـــزال فـــي الحاديـــة والعشرين رب أسرة تنمو وتزداد، ووجد وليـــم نفسه بحاجة إلى موالاة الكد والعمل المضني في ذلك الريف المعزول ليكسب رزق **تلك الأســـرة التي أصبحت عبءا إضافيا على أبيـــه**، علـــى الرغم من سوء أحواله المادية ونضوب مـــوارد عيشه؛ إلا أن فرص العمل في ســـتراتفورد لـــم تكن كبيرة، فكان عليه أن يجرب حظه في أماكن أخرى، بالهجرة إليها والعمل فيها، لولا ارتباطـــه بزوجته وأولاده، وشعوره بمسؤليته نحو أســـرته

التي يخشى أن يغامر باصطحابها معه للبحث عن لقمة العيش، في دروب وعرة من الكفاح والتشرد والارتزاق!

ولكن ظروفا صعبة أحاطت به يومذاك ودفعته إلى التعجيل في مغادرة بلدته الصغيرة..

2

يزعم الرواة أن وليم شكسبير كان يومـــذاك يصاحب عددا من الرفـــاق الشـــبان المـــاجنين المستهترين، فسولت لهم أنفســـهم ذات يـــوم أن يتسللوا إلى حديقة أحد أثرياء المنطقـــة، الســـيد **توماس لوسي**، على مقربة مـــن ســـتراتفورد، ليسرقوا منها بعض غزلانه، فشعر بهم الحـــراس وأمسكوا ببعضهم، وكان وليم شكسبير في جملـــة من تم القبض عليهم، فوضع في محبس الاتـــهام حينا، وكانت هذه الحادثة ذات أثر كبـــير فـــي شاعرية الشاب الموهوب، إذ فجرت البـــاكورة

الأولى من شعره، **فأنشأ حكاية منظومة يهجو بها السيد لوسي**، انتقاما لما أصاب وليم ورفاقه من فضيحة السرقة والسجن! وأثار هجاء الشاب ثائرة السيد لوسي وغضبه، وهو واحد من أرباب النفوذ في تلك المنطقة، فشدد النكير على الشاعر السارق، فلم يجد وليم شكسبير آنذاك بدا من الفرار إلى لندن، للنجاة بنفسه!

ويزعم رواة آخرون أن شكسبير غادر ستراتفورد يومذاك لعدة أسباب، أهمها إدراكه أن بلدته الصغيرة لا تتسع لآماله الكبيرة ومواهبه المتفتحة، وهو لو بقي فيها يكد ويعمل لكسب لقمة عيشه وأسرته لقضى على مواهبه تلك قضاء مبرما، فكان لا بد له من النجاة بنفسه،

ليشق الطريق إلى المستقبل الأفضل الذي يحلم به، فاتخذ قراره الحاسم بمغادرة ستراتفورد، وقد واتته الفرصة الملائمة عندما **وفدت فرقة ايرل ليستر المسرحية** على بلدته لتقديم بعض عروضها المسرحية فيها، فاتصل ببعض أفرادها، فدعوه إلى العمل معهم لما شاهدوا من موهبته وبراعته في الأداء التمثيلي، فاستجاب شكسبير لدعوتهم، وأقنع أسرته وأهله بالموافقة على **انضمام الشاب الممثل الهاوي إلى تلك الفرقة**، والعمل فيها، وهكذا وضع الشاب الموهوب أقدامه على بداية الطريق الموصلة إلى مجده الأدبي والمسرحي العظيم..

ولكن الدرب الوعر إلى المجد ما يزال طويلا أمام الشاب الشاعر الممثل، وعلينا أن نتابع خطا مسيرته وكفاحه، وهو يجهد في تذليل العقبات، ويحقق النجاح تلو النجاح، في صعوده العبقري الدائب نحو قمة مجده العظيم.

3

وهنا فترة أخـــرى تكتنفـــها ســـحابة مـــن الغموض في حيـــاة شكســـبير، منـــذ مغادرتـــه ستراتفورد عام 1585م إلى أن أصبح في لنـــــدن علما بارزا من أعــــلام الأدب والمســـرح عـــام 1592م. سنوات ســـــبع، بيـــن عامـــه الحـــادي والعشرين وعامه الثامن والعشرين، شهدت فـــي البداية التحاقه بالفرقة التمثيلية، وتجواله معها في رحلاتها عبر **انكلترة وبعض البلاد الأوربية مثل هولاندة** وبلجيكة، قبل أن يستقر بها المقام فـــي لندن آخر المطاف!

بعض الروايات تصور لنا **شكسبير في بداية نزوحه إلى لندن، يعمل في حراسة الجيلد** التي يعهد إليه بها أصحابها خلال حضورهم حفلات المسرح: يقول الدكتور جونسون – أحد مؤرخي حياة شكسبير الأولين: (كانت العربات قليلة في عصر اليزابيت، ولم يكن منها ما يستأجر، فكان أولئك الذين يشمخون بأنوفهم، أو تبلغ بهم رقة الجسد والكسل حدا يعجزون معه عن السير على أقدامهم، يمتطون ظهور الجياد إلى المكان البعيد، يقصدونه للعمل أو التنزه. ومن هؤلاء كثيرون كانوا يذهبون إلى مسرح التمثيل على جيادهم، فلما فر شكسبير إلى لندن،

فازعا من تهمة السرقة، كانت أولى وسائله في كسب عيشه **أن يقف عند باب المسرح ليمسك بجياد من لم يكن لهم خدم لذلك**، ليعدوا الجياد إلى سادتهم عند نهاية التمثيل، فتمكن شكسبير بعنايته وحسن استعداده أن يبرز في هذا العمل، وما هو إلا أن صار كل مترجل عن جواده يصيح: "وليم شكسبير!" حتى أوشك ألا يعهد بجواد إلى سواه ما دام حاضرا؛ وكأنما كان ذلك أول بارقة للحظ السعيد، فلما تكاثرت الجياد على شكسبير استأجر صبية يعاونونه، فإذا ما نادى صاحب الجواد: شكسبير! سارع الصبي من هؤلاء قائلا: "أنا معاونه يا مولاي!" وانتقل

شكسبير بعدئذ إلى مهنة أرفع شأنا، لكـــن ظـــل خدم الجياد يحتفظـــون بـــهذه الكنيـــة "معـــاون شكسبير" ما بقي السادة يقصدون إلى المســـرح بجيادهم!.

ولكن هذه الروايـــة عـــن الكفـــاح الشـــاق لشكسبير في هذه الفترة القاسية من حياتـــه فـــي لندن لم تسلم من النقد والتفنيد، وسواء صحـــت الرواية أو كذبت، **فقد تمكن الشاب المكافح مـــن الانتقال إلى داخل المسرح** بعد حيـــن: يعـــاون الملقن أولا، ثم يعاون الممثلين عند اقـــتراب دور كل واحد منهم، استعدادا لظهوره على المســـرح، وأخيرا يشارك في تمثيل بعـــض الأدوار بديـــلا

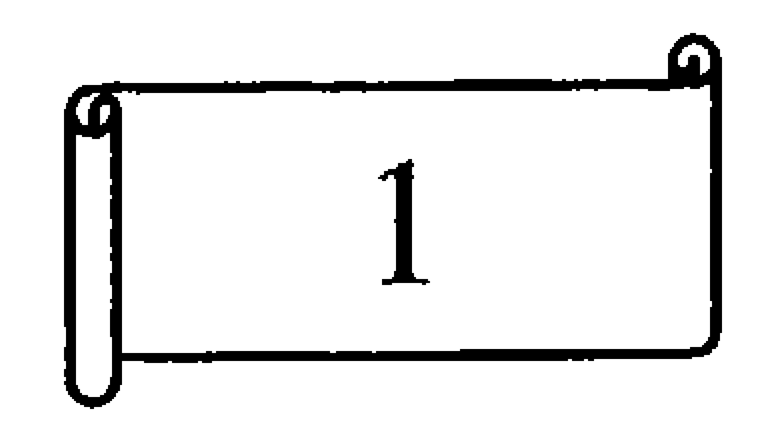
عن الممثلين الغائبين، ومن هنا تبرز موهبتـــــه، ويصعد درجات النجاح قفزا، ويعلو شأنه ممثـــلا وكاتبا، **ويصبح علما من أعلام المسـوح والأدب في عام 1592 وهو في عامه الثامن والعشرين**، ويشتد التنافس بينه وبين عدد من كبـــار كتـــاب المسرح والمؤلفين له، ويتمكن بقـــوة شـــاعريته ومواهبه الأصيلة من تحقيق السبق عليهم، وبينما كان بعضهم ينكر على الشاب العبقـــري قدرتـــه على صياغة الشعر الجيد يقدم شكســـبير آيتـــه الشعرية الخــــالدة، وهـــي **قصيدتـــه "فينـــوس وأدونيس**" في نيسان 1593 م ويهديها إلى أحـــــد النبلاء وهو "ايرل سوثمبتن" طمعا فــــي الفـــوز

برعايته، ولم تكد القصيدة تنتشر في الناس حتـــى أقبلوا على قراءتها متلهفين، وطبعت تسع مرات في أعوام قليلة، وكان نجاحها العظيـــم برهانـــا على عبقرية صاحبها ونبوغه، كمـــا كـــانت ردا متحديا لجميع المنافسين، وفي العـــام التـــالي ـــ 1594 م ـــ أخرج شاعرنا العظيم درته الثانيـــة، وهي **قصيدة "اغتصاب لوكريس"** وأهداها إلـــى حامية النبيل "ايرل ســــوثمبتن" فـــأغدق عليـــه العطاء، وبدأ شكسبير منذ ذلك الحيـــن يعـــرف اليسر في حياته بعد طول الضيق والعسر، وبـــدأ يجني ثمار كفاحه الشاق الطويل، بعد سنوات من الحاجة والفقر، **واتسع الرزق بين يديه**، وتعددت

موارد كسبه: **من الكتابة والتأليف، ومن التمثيل المسرحي، ومن المشاركة في تأسـيس بعـض مسارح لندن وتمويله**، وفاض عليه المال، حتـى تمكن من تجديد ثروة أسرته فـي سـتراتفورد، وكانت صلاته ببلدته وأهله وأسـرته هنـاك لا تنقطع أبدا، فهو يوالي زياراتـه للبلـدة التـي أصبحت تفخر بابنها البار، والأنباء التي تصـل إليها عن أمجاده العظيمة فـي حقـول الشـعر والأدب والمسرح والتمثيل.

الباب الثالث

شكسبير في أوج مجده الأدبي والفني



يقسم الباحثون حياة شكسبير الفنية إلى **أربع مراحل متميزة**، يرصدون من خلالها تطور فنه المسرحي والعدد الكبير من الروايات التي ألفها للمسرح وخير لنا أن نسير نحن مع تلك المراحل لنشهد في كل واحدة منها أهم أعمال الشاعر العظيم وأهم الأحداث في حياته فيها.

فأما **المرحلة الأولى** فهي التي تنتهي بعام 1596 م وقد ختمت بفاجعة في حياة شكسبير

وهي موت ولده الذكر الوحيد (**هـــامنت**) الـــذي جاوز العاشرة من عمره بقليل وقد خلف مـــوت ولده في قلبه جرحا لا يندمل! وهـــذه المرحلـــة تمثل كفاح الفنان العظيم لتثبيت أقدامه في فنـــه، وتحقيق آماله الكبيرة في الوصول إلى القمة التي يحلم بها، وقد شهدنا إخراجه لقصيدتيه (فينـــوس وأدونيس) و(اغتصـــاب لوكريـــس) فـــي هـــذه المرحلة فدلل بـــهما علـــى عبقريتـــه الشـــعرية الخصبة، أما في تأليفه المسرحي لهذه المرحلـــة فالباحثون يقررون أن شكسبير لم يكـــد يصنـــع أكثر من تنقيح ما وصل إليه من إنتـــاج غـــيره، مستغلا قدرته الشعرية الفائقـــة علـــى التعبـــير،

وتمكنه من صياغة الفكرة الواحدة في عبـــارات كثيرة مختلفة مستخدما ألوان الصـــور البيانيــة والبديعية لتجميل العبارة وإحكام بنائـــها، **فمـــن روايات هذه المرحلة:**

"تيتس أندرونيكس"**!**

و"هنري السادس" (بأجزائها الثلاثة)

و"ملهاة الأخطاء" (أو كوميديا الأخطاء)

و"جهد الحب الضائع"

و"حلم ليلة في منتصف الصيف"

و"ريتشارد الثالث"

و"سيدان من فيرونا"

و"روميو و جولييت"

و"ريتشارد الثاني"

و"الملك جون"

ولما كان إنتاج هذه المرحلة من المسرحيات متأثرا بحماسة الشباب وتدفقه العاطفي فقد جاءت الروايات **فياضة بالعاطفة، والعبارات الرنانة**، وفيها الدليل على تمكن شكسبير في مستهل حياته الأدبية من إحكام الصياغة وقوة التعبير، وفيها الدليل أيضا على ميل الشاعر العظيم إلى استعادة موضوع مسرحياته من التاريخ، وتاريخ بلاده ــ إنكلترة ــ بصورة خاصة، وسيكثر شكسبير من إنتاج المسرحيات التاريخية في المراحل القادمة.

وأما **المرحلة الثانية** فهي التي تمتد من عام 1596 م إلى عام 1602 م وقد ختمت بوفاة والد الشاعر، جون شكسبير، وكان وليم شديد البر بأبيه، وفي مطلع هذه المرحلة أراد الشاعر أن يرفع من شأن أبيه في ستراتفورد فابتاع له **شارة الشرف**، وكانت الدولة لا تبيع تلك الشارات إلا لسراة القوم وأعيانهم، وكان المال قد فاض في يدي الشاعر من مدخوله الكبير، من التأليف والتمثيل وتوظيف ما تجمع منه في الأعمال الأخرى، فاشترى شكسبير بعض الدور الفاخرة في بلدته، وحرص على أن يجعل أباه في زمرة السادة من ذوي الثراء، وكان ذلك كله

من أحلام صباه: أن يرد لأبيه مكانتـــه وثروتـــه بعد أن توالت على أسرته المحن ووقعت فريســـة الضيق المادي والحرمان، بعد أن كــــانت مـــن ملاك الأرض وأعيان تلك المنطقة الموســـرين؛ وقد اشترى شكسبير في ســـتراتفورد ـــ حيـــث زوجه وابنتاه سوزانا وجوديث ـــ **أفخم دار فـــي البلدة**، وقد بقيت هذه الدار إلى اليوم قائمة، يحج إليها الزائرون من أصقاع الدنيا، وفي مســـتهل هذه المرحلة الثانية من حياة وليم شكسبير الفنيـــة أخرج "**تاجر البندقية**" وهي أكـــبر دليـــل علـــى بلوغه أوج فنه المسرحي، ففيها براعة العبقـــري المبرز الموهوب، وبعد إخراج هذه المســـرحية

عام 1596م قدرت الدولة موهبته وأنعمت عليه بلقب (جنتلمان) تقديرا لفنه وإكبارا لجهوده وتشريفا له.

من روايات هذه المرحلة:

"هنري الرابع" بجزأيها

و"زوجات وندسور المرحات"

و"هنري الخامس"

و"جعجعة ولا طحن!"

و"الليلة الثانية عشرة"

و"كما تريدها"

و"ترويض النمرة"

و"خير كل ما ينتهي بخير"

والمسرحيات الخمس الأخيرة كلها ملاه من الطراز الأول، والمسرحيات الثلاث الأولى يعدها النقاد من التمثيليات التي تجمع بين المأساة والملهاة، أو هي من المآسي المضحكة، وقد عمد شكسبير إلى ذلك ليخفف من حدة مآسيه بمشهد هزلي يكسر به حدة التوتر، وعنصر الملهاة في هذه المسرحيات الثلاث يقوم على شخصية كوميدية **هي شخصية (فولستاف) وهي أبرز شخصية كوميدية خلقتها عبقرية شكسبير،** وهي نموذج لما يسميه النقاد اليوم "كوميديا الطبائع" وهي ضرب من الكوميديا يقوم على السخرية من الشخصية الإنسانية المشوهة من

الداخل؛ بحكم تكوينها الخاطئ نفسيا وعقليا؛ وعندما شاهدت الملكة اليزابيت مسرحية "زوجات وندسور المرحات" أعجبت كل الإعجاب بشخصية "السير جون فولستاف" فيها، وتصرفاته الأنانية المنافية لكل أخلاق! وطلبت الملكة من شكسبير أن يصور لها هذه الشخصية التي طغت عليها الأنانية طغيانا جارفا من جديد وقد وقع فولستاف في شباك الحب، ليرى الناس كيف يصنع العاشق الأناني، والعشق يتطلب التضحية والإيثار ونكران الذات، والعطاء دون مقابل في سبيل نيل رضى الحبيبة!

وهكذا ظفر شكسبير بإعجاب ملكة البـــلاد وتقديرها، وصادقه شيوخ الأدب وأعلامـــه فـــي عصـــره، وفـــاض كســـبه وعظمـــت ثروتـــه، وأصبحت مسرحياته تمثل صـــــورة للازدهـــار المسرحي العظيم في عصره.

2

والمرحلة الثالثة تقع بين عامي 1602 و1608 م وقد فجعت بوفاة أم الشاعر كما ابتدأت بوفاة أبيه، وإنتاج هذه المرحلة يمثل اضطرام نفس الشاعر باللوعة والحزن، وقد تمكن شكسبير من تقديم عدد من المآسي العظيمة في هذه المرحلة، بلغ فيها أوج سموه الفني، **ومن أبرزها:**

"هاملت"

و"يوليوس قيصر"

و"كيل بكيل"

و"أنطونيو و كاليوباترة"

و"كوريو لانس"

و"ترويلس و كرسدا"

و"تيمون الأثيني"

و"عطيل"

و"ماكبث"

و"الملك لير"

والمآسي الثلاث الأخيرة في حكم النقاد هي أعظم مآسي شكسبير كلها، وقد أراد أن يصور فيها ما تخلفه الخطايا والجرائم في نفوس مرتكبيها من عذاب أليم وشقاء مقيم، كما أراد أن يبين في جلاء روح الانتقام التي يحملها كل

إنسان بين جوانحه، وقد تمكن شكسبير من تصوير أعماق النفس الإنسانية تصويرا بلغ فيه القمة، وبذلك خلق للناس تلك المآسي الرائعة التي يتكفل سموها الفني بخلودها على الدهر.

وكثير من النقاد يعدون مأساة (عطيل) أعظم ما بلغه فن شكسبير المسرحي رفعة وقوة، وهي مأساة كاملة، مثلت أول مرة عام 1604 على مسرح القصر الملكي، وموضوعها الغيرة العمياء وتدميرها للحياة الزوجية، **وخلاصتها** بإيجاز أن "**عطيل**" جندي شجاع، بسيط الخلق ساذج النفس، صريح نبيل، وقد أحب "**ديدمونة**" الفاتنة الجميلة، ابنة شيخ البندقية

وأحبته، وتزوج منها على كره من أبيـــها لـــهذا الزواج، وكان حبهما ساميا ونقيـــا، فلـــم تشـــبه شائبة، وخلت حياتهما الزوجية من المنغصـــات، **حتى تمكن الواشي (ياجو) من إفساد مـــا بيـــن الزوجين،** فدس في عقل عطيل الساذج الارتياب في زوجته الطاهرة، وآثار الشكوك عليها فـــي نفس الزوج الغيور، وانتـــهى الأمـــر بوقـــوع الكارثة، **فقتل عطيل زوجته التي يحبها،** وبعـــد أن أزهق روحها تبين له وجه الحق، ولم يجـــد وسيلة للتكفير عن خطئه إلا بأن يقتل نفسه! تلـك هي القصة موجزة، وقد استعارها شكسبير مـــن **كتاب (هيكاتوميني)** للكاتب الإيطالي جـــيرالدي

سنثيو، الذي نشر وترجم إلى عدد مـــن اللغـــات الأوربية ومنها الانكيزية، في أواخـــــر القـــرن السادس عشر، فكانت القصة فـــي متنـــاول يـــد شكسبير يومذاك، وقد حافظ على هيكلها العــــام، وأضاف إليها بعض التعديلات، وبنى شـــــخصية الزوج الغيور فيها بناء دراميا أصبحت شخصية عطيل فيه بطلا تراجيديا يحزن المشاهد لمأسـاته ويتخذ منها موطنا للعبرة والـــدرس إذ اســـتطاع شكسبير أن يسمو في مســــرحيته ويجعـــل مـــن **موضوعها دراسة عميقة في الغيرة الزوجيـــــة وأثرها المدمر؛** وشــــعر شكســـبير فـــي هـــذه المسرحية يبلغ القمة فـــي التصويـــر والعاطفـــة

وتقلبات النفس الإنسانية في حالتي الرضى والغضب، والسكون والهياج، والهدوء والثورة.

وفي أواخر هذه المرحلة من حياة شكسبير تزوجت كبرى بنتيه (سوزانا) من طبيب مشهور في ستراتفورد، وستكون ابنتها (اليزابيت) من هذا الزوج الحفيدة الوحيدة لوليم شكسبير، والتي سيؤول إليها إرثه الكبير وأملاكه، كما سنرى فيما بعد.

ثم تجيء **المرحلة الرابعة والأخيرة** من حياة شكسبير الفنية وتمتد من عام 1608 إلى عام 1613 م قبل أن يغادر لندن عائدا إلى بلدته ستراتفورد ليقضي سنواته الأخيرة فيها.

ومسرحيات هذه المرحلة هي:

"بركليس" و"سمبلين"

و"العاصفة" و"قصة الشتاء"

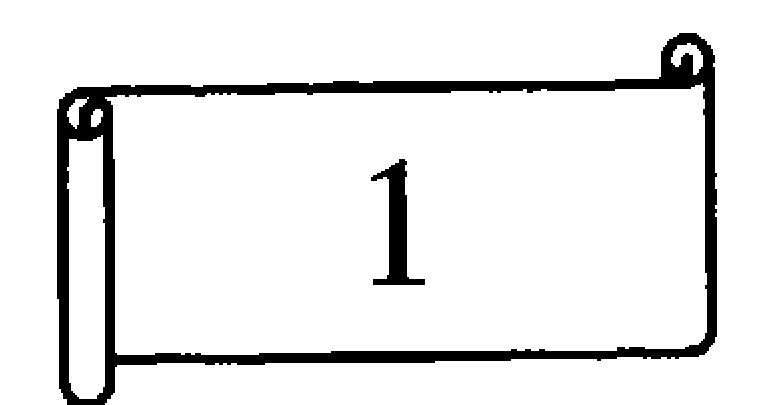
و"هنري الثامن"

وكان الشاعر العظيم خلال هذه السنوات الخمس الأخيرة من حياته في لندن قد انزاح عن صدره ما كان يجثم عليه من هموم، فراح يعقد صلات الود والمحبة مع الناس، ويحاول أن يستعيد ما كان له في صباه من مرح، ويجعل شخصيات ملاهيه الأخيرة تضحك من أعماق القلب، ولكنه لم يستطع ذلك، واقتصرت الضحكات على ابتسامات شاحبة تخفي وراءها قلبا أترعته الحادثات وعصرته الأشجان.

وفي عام 1613 كان الشاعر الأعظم قد أتم **ستا وثلاثين مسرحية**، وهو لم يتم السابعة والأربعين من حياته الخصيبة، فكان **يؤلف مسرحيتين تقريبا في كل عام من أعوام حياته في لندن**، وقد بذل في التأليف والتمثيل والإشراف على إخراج مسرحياته جهودا مضنية، فأحس العبقري بعد ذلك بحاجته إلى الراحة، **فآثر أن يعود إلى بلدته الصغيرة**، ليعيش فيها مع زوجته وابنتيه ويخلد إلى نفسه، مكتفيا بما حقق من نجاح مادي وأدبي عظيم، فلنعد مع الشاعر العبقري إلى ستراتفورد لنشهد سنوات حياته الأخيرة في نهاية مطافه الطويل.

الباب الرابع

شكسبير في نهاية المطاف



عاد شكسبير إلى ستراتفورد بعد أن أصاب من النجاح والمجد والثروة ما يكفيه، وآن لـه أن يستريح بعد طول كد وسعي، فأقام في بيته الـذي اشتراه ومعه زوجتـه (آن) وابنتـه الصغـرى (جوديث) ولكن هذه تزوجت بعـد حيـن مـن رجوع أبيها، من السيد (توماس كويني) وهو ابن رجل من تجار ستراتفورد، يتجـر بـالخمور، وأصبح شكسبير يقضي أيامه مع زوجته متفرغا

للإشراف على أملاكه وزيارة أهله وجيرانـــــه.. **وقد انقطع العبقري عن الكتابة نهائيا**، وقد كفـاه ما أعطى من نتاج خصب يكفل لصاحبه المجـــد والخلود.

ولعل أكبر ما كان يشغل بال شكسبير خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حياته، **مسألة إرثه**، فهو بعد زواج ابنته الثانية كتب وصيـــــة تـــرك بموجبها معظم أملاكه إلى ابنته الكبرى سـوزانا، ثم تكون لابنها إن أنجبت ولدا ذكـــرا، أو لابـــن أختها جوديث إن كان لها ابن فإن لم يكـــن فـــي حفدته جميعا أحد من الذكـــــور آل الإرث إلـــى اليزابيت ابنة سوزانا، وهذا ما حدث فقد انتـــهت

ثروة الشاعر العبقري إلى حفيدته تلك، وبموتها انتهت أسرة شكسبير، وتبعثرت أملاكه! أما الزوجة (آن) فليس لها في وصيته غير سرير من أسرة الدار، ولم يكن أفضلها، أوصى به الزوج لها، ويرى الباحثون ذلك دليلا على أن العلاقة بين الزوجين لم تكن حسنة في المرحلة الأخيرة من حياتهما الزوجية.

كان شكسبير في ستراتفورد يقضي **شيخوخة هادئة هانئة**، وكان إشرافه على أملاكه وإدارة المزرعة التي اشتراها قبل عقد من السنين، ومساحتها 127 فدانا، لا يشغل وقته كله، وكان يطيب له أن **يتلقى زيارات من بعض**

أصدقائه من الأدباء والأعلام، ويروي الرواة أن اثنين من أعلـــم أدبـــاء عصــره وهمـــا "بـــن جونسون" و"ميخـــائيل درايتـــون" قدمـــا إلـــى ستراتفورد لزيارته ذات يوم، فاحتفل بزيارتـهما، وقضى الثلاثة ليلتهم إلى الصباح فـــي شــراب متصل، فسقط الشاعر محموما، من الإفراط فـــي السكر، وقضى أياما تحت وطأة الحمى، إلـــى أن أسلم الروح إلى بارئها في الثالث والعشرين مــن نيسان عام 1616، في نفس اليـــوم الـــذي شـــهد مولده، وقد أتم عامه الثاني والخمسين، فدفن فـــي **كنيسة ستراتفورد، ونقشت على قبره مقطوعـــة شعرية** كان قد أعدها بنفسه لذلك، وقد جاء فيها:

"أيها الصديق الكريم، ناشدتك الله ألا تزيح عني التراب! بارك الله من يصون هذه الأحجار واللعنة على من يزحزح رفاتي!"

وهذه اللعنة التي تهدد كل من يحرك رفات العبقري هي التي حفظت رميمه في قبره، وحالت دون نقل رفاته إلى مقبرة العظماء.

2

وعندما عمدت إنكلترة إلى **الاحتفال بمـرور أربعمائة عام على ميــلاد شـاعرها الأعظـم شكسبير** أقامت مهرجانا عظيما خــلال شـهر نيسان 1964 حضره مندوبون يمثلون أكـثر دول العالم، وفي صباح الثالث والعشرين مـن هـذا الشهر، وهو يوم الذكرى، تجمع **شعراء أكثر من مائة دولة** مع عدد كبير من رجـالات إنكلـترة وغيرها عنـد مسـرح شكسـبير فـي مدينـة ستراتفورد، وحملوا أكاليل الزهور في موكـب مهيب حاشد، مشيا على الأقدام، حتـى وصلـوا **إلى البيت الذي ولد فيه الشاعر العبقـري فـي**

شارع **(هنلي)** ثم اتجهوا إلى كنيسة (هولى ترينيتي) ليقفوا خاشعين أمام ضريحه، ووضعوا الأكاليل على قبره، ونثروا فوقه الأزهار، وأقيمت مأدبة كبرى للضيوف الوافدين، تليت خلالها **رسالة الملكة اليزابيت الثانية في الثناء على الشاعر العبقري** وتمجيده، وبعد الغداء افتتح زوج الملكة **متحف شكسبير** الذي أسس لهذه المناسبة، بجوار البيت الذي ولد فيه الشاعر الأعظم، وبلغت تكاليف المتحف ربع مليون جنيه، وظلت الجماهير طوال ذلك اليوم محتشدة على جوانب الطرقات، لتحية الموكب عند مروره فيها، وعند المساء حضر الضيوف

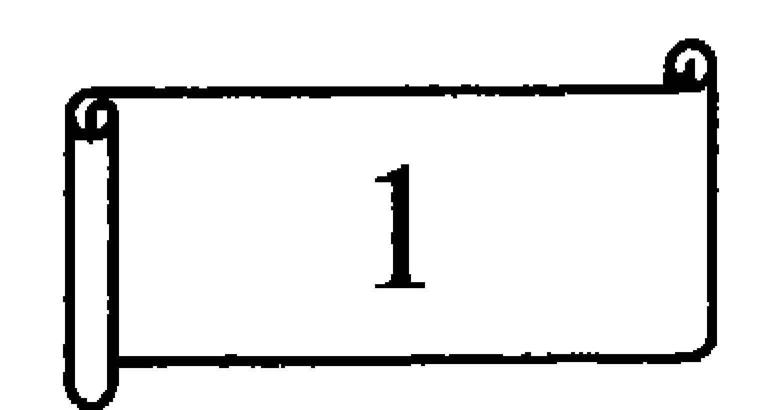
الوافدون إلى مسرح شكسبير التذكاري، ليشهدوا تمثيل إحدى روائعه المسرحية، وأصدرت الدولة **طابعا تذكاريا** تخليدا لهذه المناسبة، **يحمل صورة شكسبير مع ملكة إنجلترة.**

والحق أن الإنكليز منذ مائة عام دائبون على الاحتفال بشاعرهم الخالد، ففي الثالث والعشرين من شهر نيسان في كل عام، يقومون بموكب كبير، يسير فيه سفراء الدول من مسرح شكسبير في ستراتفورد إلى بيته، وقد أصبح هذا الموكب مسيرة تقليدية سنوية، تخليدا لعبقرية شكسبير، وتكريما لذكراه الحية في نفوس قراء أدبه الخالد.

إن مكانة شكسبير عند الإنكليز لا تعدلـــــها مكانة، ويقول كارليل: "ترى لو سئل الإنكلـــيز: أي الأمريـــن تفضلـــون: أتتخلــــون عـــن إمبراطوريتكم فـــي الـــهند، أم عـــن شـــاعركم شكسبير؟" ويجيب كارليل: "سواء لدينا أكانت لنا إمبراطورية هندية أم لم تكن" **فلن يغنينا شـــيء عن شكسبير!**

الباب الخامس

صفحات من روائع شكسبير الخالدة



نقدم في هذا الباب صورتين موجزتين لمسرحيتين من روائع شكسبير الخالدة، وهما **(تاجر البندقية)** و **(الملك لير)** وكل أملنا أن يجد فيهما القارئ العزيز ما يغريه بمتابعة قراءة مسرحيات شكسبير الكثيرة الأخرى، لأن في مؤلفات هذا الشاعر العبقري العظيم دنيا حافلة بالإفادة والإمتاع، إذ كان شكسبير رجلا فذا يمثل بمواهبه النادرة عالما بأسره، وأدبه الخصيب

مرآة للطبيعة والناس في عصره، وكانت الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ــ لحسن حظ القارئ العربي ــ قد عمدت إلى **ترجمة أعمال شكسبير الكاملة**، وتولى الترجمة عدد من خيرة الأكفاء من المترجمين، وبذلك أصبحت مسرحيات شكسبير في متناول يد القارئ العربي، في لغة سليمة وإخراج أنيق.

ومسرحية (**تاجر البندقية**) من أشهر مسرحيات شكسبير، وكنا قدمنا أنه أخرجها حوالي عام 1596م فلقيت إقبالا عظيما، وعدها النقاد دليلا على بلوغ الشاعر الكبير أوج فنه المسرحي فيها، ولقي شكسبير بعد إخراجها من

الدولة تشريفا وتكريما واعترافا بموهبته ودوره في ازدهار الفن المسرحي في عصره.

ومسرحية (تاجر البندقية) تمثل **جشع أحد المرابين اليهود في مدينة البندقية بإيطالية**، كما تصور حقد هذا المرابي اليهودي على التجار الشرفاء الذين كانوا يمدون يد العون إلى كل من تدفعه الحاجة إلى الاقتراض من اليهودي بالربا الفاحش، ومن هؤلاء التجار الشرفاء كان أنطونيو التاجر البندقي الواسع الثراء، والطيب القلب، والذي كان يحول دون أطماع المرابي اليهودي (**شايلوك**) بإنقاذ كل فريسة من المحتاجين، بتقديم القروض دون ربا إليها، مما

يزيد في سخط (**شايلوك**) وحقده على أنطونيـــو، ويجعله يتربص به الفرص لينتقم منه.

وأخيرا جاءت الفرصة المناســبة للانتقـــام، فكشف المرابي اليهودي الحاقد عن كل ما فـــي نفسه من ضغائن على أنطونيو، والقصـــة هنـــا بحاجة إلى مزيد من الشرح والتفصيل: فقد كـــان لأنطونيو في البندقية صديق يحبه ويؤثره، هـــو (باسانيو)، وكان كل من الصديقين يخلص للآخر إخلاصا لا حد له، حتى ضرب المثل بما بينـــهما من إخاء ووفاء، وقد كان (باسانيو) شابا نبيـــلا نشأ في أسرة غنية مجيدة، ولكنه أنفق كل ثروته في مساعدة المحتاجين والبائسين، وعندما أحـــب

(بورشيا) الوارثة المثرية المقيمة في (بلمونـــت) وفاز بخطبتها ورضاها وحبها، لم يجد في يـــده من المال ما يعينه على الإنفـــاق، فالتجـــأ إلـــى صديقه (أنطونيو) التاجر الموسر، الذي كـــانت سفن تجارته تذرع البحار وتحمل إليه الأربـــاح من موانئ العالم، ولم يكن أنطونيو ليبخل علـــى صديقه (باسانيو) بما يطلب، ولكن ثروته كلـــها كانت يومذاك في مراكبه التجارية التي ينتظـــر عودتها إلى البندقية، غير أن حاجة (باسانيو) لـم تكن لتحتمل التريث والتأجيل، فعمد أنطونيو إلى الاستدانة ليحصل على ما يريد صديقه من مـال، **ولم يكن أمام الصديقين بد مـن اللجـوء إلـى**

الشيخ اليهودي المرابي (شايلوك) للاقتراض منه، وهما اللذان كانا يكرهان هذا الرجل الشرير البخيل ويمقتانه، ولا يذكران اسمه إلا باللعنة والاحتقار!

ولكن حاجة (باسانيو) إلى المال الآن قاهرة، والأبواب مسدودة في وجهه، وقد تلقى الشيخ المرابي طلب (باسانيو) باقتراض ثلاثة آلاف دوقية (عملة دوق البندقية) بابتسامة ماكرة، وسأله كيف يقدر على سداد هذا القرض، فأجابه:

إن صديقي أنطونيو يكفل القرض، وهو يتعهد لك برده قبل أن تنقضي أشهر ثلاثة!

وعندما حضر أنطونيو إلى بيت (شـــايلوك) قال له الشيخ اليهودي الماكر:

ـ إني مستعد لتسليفك المال بلا ربح ولكني أحب أن أشترط شرطا، مـــن قبيـــل المداعبـــة والمزاح، ولن ترفضه ما دمت موقنـــا بقدرتـــك على الوفاء بالدين في الموعد المحدد!

وأجاب أنطونيو دون تردد:

ـ اشترط ما تريد، فأنا واثق كل الثقة مـــن قدرتي على الوفاء بالدين قبـــل انقضـــاء ثلاثـــة أشهر! وقال (شايلوك) عند ذاك:

ـ إني **أشترط أن تعطيني رطلا من لحمـك،** إذا تأخرت عن سد الدين في الوقـــت المحـــدد!

ودهش الصديقان لهذا الشرط العجيب، وعجبـــا من رغبة الشيخ اليهودي في مثل هذا المـــزاح، وأعلن (باسانيو) رفضه ولكن (أنطونيو) حســـم الأمر بتوقيع الصك، وأعلن لصديقـــه أن ســـفنه ستعود إلى البندقية قبـــل أن ينقضـــي شـــهران، وابتهج (شايلوك) معلنا أنه لم يقصد إلا الدعابـــة البريئة والتسلية الخالصة، وأنه عمد إلى تقديـــم القرض إلى الصديقين بلا ربا، ليفـــوز بحبـــهما ويستميل قلبيهما إليه!!

وهكذا وقع (أنطونيو) عقد الدين، ولم يقـــدر عواقب موافقته تقديرا صحيحا! وحمل (باسانيو) المال ليسافر إلى (بلمونت) وخطيبتـــه الحســـناء

(بورشيا) وكانت فتاة ثرية نبيلة يتهافت الخطـلب على طلب يدها، ولكنهم لم يفوزوا بــها، وفــاز (باسانيو) إذ ساعده الحظ بذلك، ولا حاجة إلـــى تفصيل كيف تم له ذلك، في هذا الموجز السريع.

ومرت أشهر ثلاثة عندما قدم مــن البندقيــة على (باسانيو) صديق يحمل أنباء مزعجة، فقـــد **غرقت جميع السفن والمراكب التي تحمل تجـارة أنطونيو**، وأصبح التاجر البندقي الواسع الـــثراء لا يملك شيئا، واستحال عليه أن يفي بما عليه من دين لليهودي المرابي (شايلوك)، وأصر الشـــيخ الماكر على الانتقام من عدوه اللـــدود، بمطالبتـــه برطل من لحمه! وعندما سمع (باســـانيو) هــذه

الأخبار أصابه الهلع، وهده الألم، وعلمت بورشيا بالأمر، فأبدت استعدادها لدفع أضعاف المبلغ إلــى اليهودي الحاقد، وأرسلت باســـانيو دون تريـــث ليعمل على إنقاذ صديقه الوفي الصدوق.

وفي قاعة المحكمة لم تجد جميع الوســـائل لاستعطاف الشيخ اليهودي، وقد أصر على تنفيـذ ما اشترط، انتقاما من التاجر المنكوب بثروتـــه، وإرضاء لحقده الأسود عليه.

ونقدم هنا إلى القارئ العزيز **مشـــهدا مــن قاعة المحكمة**، كما يقدمه شكسبير، وشـــخصيات المشهد: الـــدوق حـــاكم البندقيـــة، وأنطونيـــو، وشايلوك، وباسانيو مع غيرهم من الأعيان الذين حضروا المحاكمة.

2

المشهد: البندقية: قاعة المحكمة

الدوق: أنطونيو هنا؟

أنطونيو: إني رهن إشارة سموكم.

الدوق: إني لما آسف أصابك، وإنك لتواجه خصما قد قلبه من الصخر، مجردا من الإنسانية، فاقد الإحساس بالشفقة، ليست لديه ذرة من العطف والرحمة!

أنطونيو: لقد سمعت أن سموكم قد بذلتم جهدا عظيما لتخففوا من شدة مطالبه، ولكنه اتخذ موقف العناد، ولما كانت مواد

القانون لا تنجيني من براثن حقده، فــإني
أواجه حدة غضبه صابرا هادئا لتحمــــل
قسوة حقده وضغينته.

الدوق: ليتوجه من يدعو اليهودي للمثول أمــــام
المحكمة [يدخل شايلوك].

الدوق: أفسحوا له الطريق، ودعوه يقـــف فـــي
مواجهتنا، إن الناس كلـــهم يظنـــون يـــا
شايلوك، وأنا معهم في ذلك، أن كل مـــا
تريده هو أن تمضي في هذا الضرب مـن
الحقد البغيض حتى آخر الشـــوط، وهــم
يظنون أنك حينـــذاك ســتظهر شـــفقتك
ورحمتك على نحو أعجب مما تتظاهر به

من القسوة العجيبة ويقولون إنك لن تنزل فقط عن الجزاء الذي تود توقيعه باقتطاع رطل من لحم هذا التاجر البائس، بل إنك ستأخذك الرحمة الإنسانية والعطف وتلقي عليه نظرة لما أصابه من الخسائر الأخيرة الفادحة التي أثقلت كاهله، فتعفيه من بعض المال، وهو دين لو أصيب به أعظم التجار لأفلس واستدر العطف من كل القلوب، وإن قدت من النحاس أو الصخر الأصم! إنه لخطب يؤثر في أقسى النفوس ولو لم تكن تألف الرقة في المعاملة، وإنا جميعا لنرقب جوابا رقيقا منك أيها اليهودي!

شايلوك: لقد صارحت سموكم بما أهدف إليــــه،
ولقد أقسمت بسبتنا المقدس أن آخذ مـــالي
من حق لمضي الوفاء كمــــا جـــاء فـــي
الصك، فإذا أنكرتم هذا فلتقـــع مخـــالفتكم
أنظمة مدينتكم وحرياتها على كواهلكـــم،
ولسوف تسألني لم أفضل الظفر بقطعــــة
من اللحم الفاسد على ثلاثة آلاف دوقيـــة،
ولكني لن أجيبك عن هذا السؤال، ولكــن،
لنقل إن هذا هو مزاجي الخـــاص: فـــهل
استطعت أن أجيبك؟
وماذا في الأمر إذا كان هناك فأر يعيـــث
في بيتي فسادا ويضايقني، وكان يســـرني

أن أؤدي عشرة آلاف دوقية لاصطيـــاده؟
أترضون هذا جوابا؟ إن من الناس مـــن
يمقتون رؤية خنزير مشوي فاغر فــــاه،
وآخرين يجنون جنونا إذا شـــاهدوا قطـــا
ومنهم من لا يستطيع منع نفسه من التبول
إذا أصغى لنغمة مزمار، ذلك أن عواطفنا
تسيطر سيطرة كاملة على ما نحب ومـــا
نكره والآن لأجب عن سؤالك: كما أنه لا
يوجد سبب قوي يوضح السر في كراهيـة
هذا الشخص لخنزير فاغر فــــاه، أو ذاك
للقط العديم الأذى الذي لا بد من وجـــوده
في المنزل، ولا يطيق ثالث هذا المزمار،

فكذلك لا أستطيع أن أدلي بسبب ولن أدلي بسبب أكثر من أنني أضمر البعض لأنطونيو وأحقد عليه أشد الحقد، ولهذا أمضي في قضية خاسرة ضده، أفيقنعكم هذا الجواب؟

باسانيو: ليس هذا جوابا أيها الرجل العديم المشاعر يسوغ قسوتك التي نراها!

شايلوك: لست ملزما بأن تعجبك إجاباتي!

باسانيو: أفيقتل الناس كل ما يكرهون؟

شايلوك: أيكره الإنسان ما لا يرغب في قتله؟

باسانيو: ليس ضروريا أن تؤدي كل إساءة إلى الكراهية.

شايلوك: ماذا تقول؟ أفتسمح لثعبان بأن يلدغك مرتين؟

أنطونيو: أرجوك أن تتذكر أنك تناقش اليهودي:
إنه لأسهل عليك أن تسأل الذئب لم أبكى النعجة بافتراس صغيرها من أن يكون في وسعك أن تلين قلب اليهودي الذي لا نظير له في قسوته، ومن ثم فرجائي إليك ألا تعرض عليه شيئا بعد، وكفاك جهدا في هذا السبيل، ولكن عجلوا بإعلان القانون كما يتراءى لكم، واحكموا في قضيتي، وليظفر اليهودي بمرامه.

باسانيو: هذه ستة آلاف دوقية خذها مقابل آلافك الثلاثة!

شايلوك: لو أن كل دوقية من هذه الآلاف الستة
قسمت ستة أقسام، وصار كل قسم منها
دوقية لما رضيت بذلك مغنما: لست أبغي
غير تنفيذ شرط الوثيقة!

الدوق: كيف ترجو مرحمة وأنت لا تظهر شيئا
منها؟

شايلوك: وأي حكم أخشاه ما دمت لا أظلم أحدا؟
إن رطل اللحم الذي أطالب به قد اشتريته
بثمن غال! إنه حقي وسأناله، فإذا أبيتم
علي ذلك فسيلحق العار بقضائكم، ولن
يصبح لقوانين البندقية أي أثر فعال! أقف
مطالبا بحكمكم، فأجيبوني، هل أظفر به؟

الدوق: إن من حقي أن أقف هذه المحكمة بمالي من سلطان، ما لم يفد العالم الضليع (بيلاريو) الذي أرسلت في طلبه اليوم للوقوف على رأيه في حسم هذه القضية!

وعند ذاك يصل إلى قاعة المحكمة رسول من مدينة (بادوفا) من عند العلامة (بيلاريو) يوصي أن تأخذ المحكمة برأي عالم شاب، يدخل إلى القاعة وهو في الحقيقة (بورشيا) خطيبة (باسانيو) متنكرة، ويأخذ الشاب القادم أول الأمر جانب شايلوك وحقه في طلبه، فيرتاح الشيخ اليهودي إليه، ويعلن إصراره على اقتطاع رطل اللحم ولو عرضت عليه البندقية كلها مقابل ذلك

لما رضي، ويستسلم أنطونيـــو ويتوســل إلـــى المحكمة أن تصدر حكمها عليه، ويكشف عـــن صدره، ويسأل العالم الشاب شايلوك:

ـ من حقك الحصول على رطل من لحـــم هذا التاجر وإن المحكمـــة لتحكـــم لـــك بذلـــك، والقانون يؤيدك! **ولكن الصك لا يبيح لك الحـــق في قطرة واحدة من الدماء!** خـــذ نصيبـــك من اللحم، ولكنك إذا أرقت وأنت تقطعه قطرة واحدة من دم مسيحي، صودر عقارك وبضائعك لدولـــة البندقية تطبيقا لقوانينها!

وهنا يتراجع شايلوك عن طلبه، ويرضـــى بأن يتقاضى ثلاثة أمثال المبلغ، كمـــا عـــرض

باسانيو من قبل عليه، ولكن العالم الشاب يتدخل، ويرفض أن ترضى المحكمة بذلك، ويدعو شايلوك إلى **اقتطاع رطل لا يزيد في الوزن حبة عن الرطل**، من لحم أنطونيو، دون أن يريق قطرة من دمه، وإلا كان مصير شايلوك الموت، وصودرت جميع ممتلكاته!

وهكذا **يتنازل الشيخ اليهودي عن كل شيء لينجو بنفسه**، وتنتهي المسرحية بإنقاذ أنطونيو من ورطته واكتشاف باسانيو شخصية العالم الشاب الذكي الذي أنقذ حياة أنطونيو، دون أن يخالف قوانين البندقية، وألحق الهزيمة والجزاء بالشيخ اليهودي المرابي، الذي خرج من قاعة المحكمة، وهو يجر أذيال الخيبة والندامة.

وتنتهي المسرحية بمفاجأة سارة أخرى، فقد تمكنت ثلاث سفن من مراكب أنطونيو التجارية من النجاة من الغرق ووصلت سالمة بما تحمل إلى ميناء البندقية.

3

تعد مسرحية (الملك لير) من أشهر مآســي شكسبير، وهي من نتاج المرحلة الثالثـــة مــن حياته الفنية، أخرجها حوالـــي 1605 ــ 1606م، وأكثر مسرحيات هذه المرحلة من المآسي التـــي صور فيها الشاعر ما تخلفه الجرائم والخطايا في نفوس مرتكبيها من عذاب أليم وشقاء مقيم، **كمــا صور فيها روح الانتقام التي يحملها كل إنســان في جوانحه.**

وترجع بنا مأساة الملك لير إلـــى المــاضي البعيد منذ ألفي عام، ففي شمال بلاد الإنكليز كان

يومذاك ملك طيب القلب، أحبه شعبه لأنه كـــان حاكما عادلا، وقد شاخ هذا الملك دون أن يرزق ولدا يخلفه على عرشه، **فعزم علـــى أن يقسـم ملكه بين بناته الثلاث**، ليزيح عن كاهله أعبـــاء الحكم، ويترك لبناته وأزواجهن مسؤولية الحفـاظ على أرض مملكته وشعبه، ويرتاح في شيخوخته ويقضي أيامه الأخيرة في دعة وأمـــن وســـلام، مستريح القلب ناعم البال، بعد أن بلغ الثمـــانين، وجلل الشيب رأسه.

وأقام الملك لير احتفالا عظيما في قصـــــره الكبير لكي يعلن تقسيم مملكته بين بناته، ويحـــدد حصة كل واحدة منهن وكانت بنتاه الكبريان قـــد

زوجتا من أميرين، أمــــا البنــت الصغــرى _ واسمها كردليا _ فقد جاء ملك فرنسة وواحد من أمراء انكلترة، ونزلا ضيفين على الملــك لــير، وكان كل منهما راغبا في الزواج من صغـــرى بناته تلك، وقد استدعى الملك الشيخ بناته الثلاث وقال لهن.

ــ إني أود أيتها العزيزات أن أقسم ملكـــي بينكن، **لكني أحب أن أعرف قبل ذلك مدى حبكن لي**، بأن تجيب كل واحدة منكــــن عــن ســؤال أوجهه إليها على انفراد!

وخلا الملك بابنته الكبرى (جنريل) وكـــانت فتاة خبيثة الطوية، مسرفة في الأنانية، ولم تكـن

تضمر لأبيها شيئا من الحب، ولكنها كانت تتودد إليه وتتملقه، طمعا في ميراثه، فلما سألها عـــن مقدار حبها إياه، قالت وهي تتظـــاهر بالحنـــان: أنت أعز علي من سواد عيني، وإنـــي لأفديـــك بنفسي، وأضحي في سبيلك بدمـــي، وأدعـــو الله أن يحفظك سالما من كل سوء! وخدع الملـــــك لير بثناء ابنته الكبرى، وسر أعظم السرور بمـــا قالته، **وأعلن أنه يمنحها ثلث مملكته الكبيرة.**

وأما البنت الثانية (ريجان) وهي الوسـطى، فقد أجابت أباها على سؤاله، وكانت **أخبث مـــن أختها** وأكثر لؤما وطمعا بقولها: إني أحبك يـــا أبتاه قدر ما تحبك أختي جنريل إن لم أزد عليها،

وليس في الدنيا شيء يمكـــن أن يشـــغلني عـــن حبك، أو يجعلني أغفل عن التفكير فيك لحظــــة واحدة!

وفرح الملك لير بجواب ابنتـــه الوســطى، وامتلأ زهوا وإعجابا بثنائها، **وأعلن لــــها أنـــه يمنحها ثلث ملكه**، لأنها جديـــرة بحـــب أبيـــها ومكافأته لها.

وجاء دور الصغرى (كردليا) وكانت فتــــاة طاهرة القلب، نقية النفس، مخلصة حقا في حـــب أبيها، ولكنها لا تميل إلـــى الغلـــو ولا تعـــرف الكذب، فأجابت أباها عن سؤاله بقولـــها: إننــــي أحبك يا أبي **كما تحب كل فتاة والدها!**

واستاء الملك لير من جواب ابنته الصغرى وكان ينتظر أن يسمع منها آيات المديح والثناء، كما سمع من أختيها المرائيتين، وعد قولها عقوقا، وركبه الغضب فطردها من مجلسه، ولم يدرك أن إخلاصها له هو الذي دفعها إلى ذلك الجواب، لكيلا تبدو متملقة مرائية عند تقسيم أبيها لملكه بينها وبين أختيها، وخرجت الفتاة الأبية محرومة من كل إرث، وأعطى الملك المخدوع نصيبها إلى أختيها إثر ذلك!

وعندما تبين للأمير الإنكليزي الذي كان يخطب كرديليا أنها لن تفوز من إرث أبيها وملكه بشيء تخلى عن طلب يدها، فتزوجت الخطيب

الثاني، ملك فرنسة، وحملها إلى بلاده، وقد أصر الملك لير على ألا يراها في قصره ثانية!

كان ملك فرنسة كبير الإعجاب بصراحة كردليا وعزة نفسها وإبائها، ورفضها أن تبدو بمظهر المتملقة لأبيها لتنال منه نصيبها من ميراثه، وقبل أن تغادر كردليا انكلترة مع زوجها إلى بلاده حاولت أن تودع أختيها الوداع الأخير، فلقيت منهما كل جفاء وخشونة وقال الملك لير لزوجها: اذهب بها إلى حيث تريد، فما أطيق رؤية وجهها بعد اليوم!

وكذلك تم **إعلان تقسيم المملكة بين الأختين الكبريين** وتخلى الملك لير عن ملكه

جميعه، ولم يترك لنفسه غير لقب (الملك) ولم يحتفظ بغير مائة فارس، ليكونوا حاشيته وأعلن أنه سينزل ضيفا على إحدى ابنتيه في الشهر الأول، ثم ينتقل إلى ضيافة البنت الثانية في الشهر الثاني، وهكذا سيقضي ما تبقى من أيام حياته في ضيافة ابنتيه العزيزتين! وكان للملك لير وزير حكيم عاقل اسمه (**كنت**) فحاول أن يصارح الملك بخطئه، فلم يلق منه أذنا مصغية، وغضب الملك على وزيره وطرده، وأمر بنفيه من المدينة، وتوعده بالقتل إن لم يرحل عنها!

وبعد أن أتم الملك لير توزيع مملكته وإرثه بدأ يعيش حياته على النحو الذي أراده: **فذهب**

إلى قصر ابنته الكبرى (جنريل) ليقضي الشـــهر الأول في ضيافتها، ولكنه لـــم يلبـث أن أدرك حقيقة ابنته التي كان الرياء والنفاق يسترانها عن ناظريه، ذلك أن جنريل بعد فوزها بمـــا كـــانت تطمع فيه من مال وسلطان، وبعد أن استقر لـــها الملك لم تحرص على إخفاء لؤمـــها وعقوقـــها، وأصبحت تجد في أبيها وحاشيته الكبيرة عالـــة عليها، وعبءا على خزينتها، واستكثرت علـــى الملك الشيخ رجال حاشيته المائة، فراحت تتجهم له، وأصبحت تماطل في تلبية رغباته، وتســتثقل ما ينفق على حاشيته من الفرســـان وخيولـــهم، واقتدى خدمها بها فـــأصبحوا يعـــاملون الملـــك

الشيخ بقلة الاكتراث، ولا يلبون له طلبا، وكان الوزير الناصح الأمين الذي طرده الملك لير قد انضم 'إلى خدم الملك متنكرا، ليظل إلى جانب مولاه يحرسه ويرعاه، حبا وإخلاصا ووفاء، وقد شهد الوزير المتنكر يوما استهتار واحد من خدم جنريل بالملك الشيخ، وهو يجادله بوقاحة واحتقار، فثارت ثائرة الوزير الوفي، وصفع الخادم صفعة أدمت قفاه، جزاء على تطاوله وسفاهته، فابتهج الملك لير لتأديب الخادم الوقح، وسر لإخلاص خادمه الجديد، غير أن ابنته جنريل أفلحت في إقناعه بأن يكتفي بعشرين فارسا لحراسته، فحياته آمنة وغير مهددة،

والحاشية الكبيرة نفقاتها ثقيلة على ابنته دون فائدة منها!

ثم عزم الملك لير على الانتقال إلى ضيافة ابنته الثانية (ريجان) وهو يأمل أن يجد عندها من الإيثار والوفاء ما لم يجده عند الأولى، وقبل رحيله إليها بعث إليها رسوله ـ وهو وزيره الأمين المتنكر ـ ليخبرها بقدومه، وكانت أختها الماكرة قد وافتها بأخبار الأب الشيخ، وكثرة حاشيته وجلبتها وضوضائها ونفقاتها، فاستقبلت ريجان رسول أبيها استقبالا جافا، فلما حاول أن يذكرها بما لأبيها الشيخ الجليل من حقوق عليها، ثارت في وجهه غاضبة، وأمرت بحبسه عقابا له

على جرأته، فلما وصل الملك لير مع فرسانه العشرين إلى قصرها لم يجد ما كان يرجوه من ترحيب بقدومه، وعلم بحبس رسوله فاشتد غضبه، وراح يقرع ابنته العاقة ويؤنبها، فانبرت له قائلة:

خفف من غضبك أيها الأب الشيخ، وإن أختي لها كل العذر في نفاد صبرها من صخب رجالك وعبثهم في قصرها، واقترافهم الشرور والآثام، فقصور الملوك جديرة بأن تحفظ من عبث العابثين وصخب اللاهين!

ولم يصدق الملك الشيخ ما سمعته أذناه من ابنته الثانية، وكاد يغمى عليه من فرط الأسى

والحزن، لولا اعتصامه بالصبر، **وقد أدرك مدى خطئه في تنازله عن مملكته وثروتـــه لابنتيــه الجاحدتين!**

وقالت ريجان لأبيها:

ـ ما حاجة مثلك أيها الشيخ إلى مثل هـــذا العدد الكبير من الحراس والجند؟ إني لأســـتكثر عليك خمسة، وأنت لن تحتاج إلى فارس واحـــد، وإن خدمي يؤدون لك كل ما تريد، فما انتفــــاع مثلك بالحاشية!

وهنا اتضح لعيني الملك الشيخ ما كان خافيا من عقوق ابنتيه ونكرانهما، فاشتد سخطه، ودعــا

عليهما بأن تلقيا الجزاء العادل وسوء المصير، عقابا لهما على غدرهما، وعزم على الرحيل عنهما، مستسلما إلى أحزانه ويأسه ومصيره المجهول!

4

انطلق الملك لير هائما على وجهه في قلب الغابة، ولم يصحبه غير وزيره الأمين المتنكر في صورة خادم، وواحد آخر من خدم الملك، وكانت الليلة عاصفة شديدة البرد، كثيرة الأمطار، قاصفة الرعود، وقضى الرجال الثلاثة ليلة مروعة، وهم تائهون في ظلام الليل ودروب الغابة، حتى وصلوا إلى كوخ صغير يقطنه **(توم المسكين)** فدخلوه، وبعد قليل وصل الأمير **(جلستر)** الذي ظل مخلصا للملك لير، وقد جاء يبحث عنه ليأخذه إلى قصره القريب، وينقذه من

أعدائه المتربصين به، وكـــان للأمـــير جلســـتر ولدان: أحدهما (**ادجار**) وهو ابنه حقـــا، وكـــان مثال الوفاء، وثانيهما (**ادمونـــد**) وهـــو متبنـــاه، وكان مثال العقوق، وقد رباهما معا فلما كبرا لـــم يكن للثاني هم غير الوشاية بأخيه، لإيغار صـــدر أبيه عليه، وليستأثر هو وحده بكل شيء! وقـــــد أوهم ادموند الأمير الأب أن ابنه إدجار طـــــامع في قتله وثروته، فطرد الأمـــير ابنـــه وتوعـــده بالقتل، ولم يجد الإبن البار المظلوم بـــــدا مـــن الهرب من وجه أبيـــه، **فتنكـــر فـــي زي (تـــوم المسكين)** وعاش في ذلك الكوخ الحقـــــير فـــي الغابة، **وخلا الجـــو لإدمونـــد** ومكـــره وخبثـــه

وطموحه، **ولم يلبث أن أصبح مستشار المملكـة كلها**، وموضع ثقة الأميرتين الأختيـــن، ابنتـي الملك لير، وقد أسهم في تأليب الأختيـن، علـى أبيهما، للخلاص منه، ولم يجد الخبيث ما يردعه عن الوشاية بالرجل الذي تبنـــاه، فكـان يبلـغ الأختين أخبار الأمير جلستر ووفائـــه لأبيــهما، ويحذرهما منه، خشية من أن يمد يده إلى أبيـهما ويعينه على استرداد عرشه وأملاكه منهما! وقـد عجلت الأختان بالقبض علـــى الأمـير الوفـي لأبيهما، بعد عودته من لقاء الملك لير وتحذيـره من الأخطار المحدقة به، وألقـي بـالأمير فـي السجن، وعذب عذابا أفقده نور عينيه، ثم رمـوا

به خارج السجن، وقد أصبح أعمى يتلمس طريقه بيديه! ولقيه (توم المسكين) على هذه الحال البائسة، وهو على الحقيقة ابنه الوفي إدجار ـ كما قدمنا ـ ففاض قلبه لوعة وحزنا على أبيه، وظل يلازمه ويرعاه، وإن لم يكشف له عن حقيقته. وقد صادفا في الحقول لير، وقد أصبح في حالة مؤسفة من الضياع والهذيان وسوء المآل!

كانت أخبار مأساة الملك لير قد وصلت إلى مسامع ابنته الوفية الصغرى كردليا، فأخبرت بذلك زوجها الحبيب ملك فرنسة، فهل يتردد في إعداد جيش كبير لتأديب الأختين الغادرتين

والتنكيل بهما، **وأسرعت كرديليا مع الجيش لنجدة أبيها** وإنقاذه، وقد استطاعت الفتاة البارة الحنون أن ترد إلى أبيها الذاهل وعيه، فعرفها واعتذر لها نادما عن ظلمه لها، وعرف صدق حبها العظيم له، والتقى الجيشان: جيش الأختين الغادرتين وجيش كرديليا في معركة طاحنة، كان الفوز فيها للخبثاء الثلاثة جنريل و ريجان ومستشارهما إدموند الذي قاد الجيش وأحرز النصر، وأسر كرديليا وأباها الملك لير، وأودعهما السجن.

وكان زوج جنريل، الأمير **(ألباني)** رجلا طيب القلب، فأصر على إطلاق سراح

الأسيرين، وأصر إدموند علــــى بقائــهما فـــي السجن، وغضب الأمير (ألباني) ودعا إدمونـــد للمبارزة، وبينما الجمع في هذا الموقف الغاضب امتشق إدجار ـ ابن الأمير جلســـتر ـ سـيفه ودعا إدموند إلى مبارزته قائلا:

ـ هلم أيها القائد لتكتب آخر صفحـــة فـــي تاريخ حيـــاتك المملــوءة بالشــرور والدنايـــا والأرجاس! واهتاج إدموند للإهانات التي صبــها عليه الرجل الذي يدعوه إلى المبــــارزة فجــرد سيفه ودارت رحى قتال مستميت بين الرجليـــن وعاجل إدجار خصمه بطعنة قاتلة جعلته يـــهوي إلى الأرض مضرجا بدمائه وأغمي على ريجان

فزعا وكانت **أختها جنريل دست لها السم قبيل ذلك لتستأثر بالملك وحدها** وهكذا سقطت ريجان إلى الأرض بلا حراك وعندما رأت جنريل انهيار آمالها بمصرع إدموند الذي كان معقد أملها للتفرد في الحكم عاجلت نفسها بطعنة قاتلة وهكذا توالت مصارع الخبثاء الثلاثة مودعين باللعنات لما جنت أيديهم من الشرور والآثام.

وأسرع الأمير المنتصر إدجار لإنقاذ الأسيرين : كردليا وأبيها الملك لير ولكن القضاء كان أسرع منه إلى تلك الفتاة الطاهرة التي لقيت حتفها مصلوبة في السجن قبل أن تصل إليها أيدي المنقذين! **واستولى الذعر والخبال على**

الملك لير فحمل جثة ابنته بين يديه وهو يبكي بكاء تتفطر للوعته أقسى القلوب!

وهكذا ختمت مأساة الملك لير بالدموع والهذيان والجنون حتى لفظ الشيخ المسكين أنفاسه الأخيرة وقد طحنت الأحزان قلبه وأسلمته إلى الموت.

المحتوى

أعلام مبرّزون

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة

لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

١ - الاسكندر الأكبر
٢ - هنيبعل
٣ - أبو العلاء المعري
٤ - ابن بطوطة
٥ - ابن خلدون
٦ - كريستوف كولومبوس
٧ - وليم شكسبير
٨ - نابليون بونابرت
٩ - ليون تولستوي
١٠ - المهاتما

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي

طباعة ونشر وتوزيع الكتب والمصورات

بيروت - لبنان - ص.ب ٦٩١٨ / ١١

حلب - سوريا - ص.ب ٤١٥